أزيز

بقلم غادة عبد العال

قامت اليونيسف بإعداد هذه الترجمة من اللغة العربية

لم يرفع (مراد) عينيه عن سرير العمليات، على الرغم من أنه يفصله عنه زجاج سميك. ففوق هذا السرير سيتم اختبار حياته، بل حياة الجميع.

لم يرفع (مراد) عينيه عن سرير العمليات، على الرغم من أنه يفصله عنه زجاج سميك. ففوق هذا السرير سيتم اختبار حياته، بل حياة الجميع. كانت طائرات "الدرونز" الصغيرة تتجول بهدوء في غرفة العمليات لتجهيز كافة الأدوات التي تحتاجها التجربة. كان كل منها يتحرك في مساره، مسارات متقاطعة ومتوازية، غاية في الانضباط، لكن ما كان يعتمل في صدر (مراد) من مشاعر كان لها مسارات أخرى، متذبذبة، مرتجفة، تتراوح بين قمة الأمل وعمق اليأس.

لحظات وتوقفت كل حركة في الغرفة، وتصلبت عضلات (مراد) وهو يتابع باب الحجرة وهو يفتح ليتحرك سرير المريض المتحرك ذاتيا بعد أن أتى به من غرفته لحجرة العمليات ليستقر في منتصفها. فوق السرير كان يرقد أستاذه، ذلك الذي علمه كل ما يعرفه عن الطب والهندسة الوراثية وعلم الأمراض. التفت الدكتور (سليم) من فوق سريره ليلقي نظره على تلميذه الذي تتعلق حياته الآن بأصابعه.

كان المرض لا يزال لم يتمكن منه بشكل كامل. فعلى الرغم من احمرار عينيه وشحوب وجهه وازرقاق شفتيه الذي يدل على نقص الأكسجين في دمه، إلا أنه كان لا يزال على درجة من الوعي الذي مكنه من أن يبتسم ل(مراد) بوهن.

رد (مراد) ابتسامة أستاذه بابتسامة أخرى مشجعة وفي نفس الوقت شاكرة، فها هو واحد من أهم علماء العالم يضع ثقته وحياته حرفيا بين يدي تلميذه الذي لم يبلغ من العمر عشرين عاما.

بمزيج من القلق والتصميم، مد (مراد) يده ليضغط على الزر الأحمر في لوحة التحكم أمامه. وأمام عينيه تدفق من جانبي الحجرة خلف الزجاج سربان من النحل الذي ملأ أزيزه المكان عبر مكبرات الصوت. وبينما بدأ النحل في تغطية جسم الدكتور (سليم)، عاد (مراد) بذاكرته إلى بداية كل شيء، قبل هذا اليوم بعام واحد.

كان يوما عاديا ككل الأيام، كان (مراد) وزملائه في مكان اجتماعهم المعتاد في انتظار الدكتور (سليم). أربعة أولاد وثلاث بنات، الكل موجودون، حتى عم (رضا) مسئول النظافة بمكنسته الكهربائية التي تبلغ من العمر أربعين عاما والتي يرفض استبدالها بأحد الأنواع الجديدة التي تعمل بدون توجيه وكأنه يرد لها الجميل على صمودها معه كل هذه السنين، كانا أيضا حاضرين. كان يوم الثلاثاء من كل أسبوع هو اليوم الذي ينتظره (مراد) وزملائه، هو اليوم الذي يجعلهم يشعرون أنهم ينتمون إلى مكان ما.. مجتمع..عائلة.. وطن.!

كان قد مضى ما يقرب من خمسة عشر عاما على قرار حكومي بفصل بعض الأطفال عن أهلهم إذا ثبت أن هناك تاريخا مرضيا عائليا يجعلهم معرضين للعدوى المتحورة.

كان العالم لا يزال يتذكر فيروس "الكوفيد" الذي أصاب شعوب العالم كلها بالفزع. كان العالم قد اعتبر نفسه المنتصر في معركته مع الفيروس التي اعتبرها انتهت في العام ألفين وأربعة وعشرين، إلا أنه لم يلبث أن عاد أقوى بعدها بعامين، وبعد سلسلة طويلة من النقاشات والتوصيات، ومقاومة التوصيات، كان أن تسبب العناد البشري في تحوره الذي تسبب في فناء نحو مليارين من البشر.

بعدها وعي الكل للأمر وبدأوا في اختبارات موسعة للوقوف على البشر الأكثر تسببا في نشر العدوى. وكانت كل الأصابع موجهة للأطفال. فهم وحدهم يحملون المرض دون أعراض، فيتحركون بين أرجاء العالم كالقنابل الموقوتة الصامتة.

قاوم الأهالي وقاوموا، لكن صور الجثث المتراكمة في الشوارع كانت لا تزال حاضرة في الأذهان. وبعد أن أكدت كل حكومات العالم أن الأطفال المفصولون عن أهلهم سيتلقون رعاية حكومية مميزة، بل أنهم سيتلقون اهتماما تعليميا خاصة من ناحية تلقي العلوم والاهتمام الصحي والرياضي في مدارسهم وأماكن إقامتهم المسورة التي حملت اسم: (الخلية)، مع تهديد المعترضين بأن يحرموا من أية خدمات حكومية وبأن يتم إبعادهم لأماكن عزل في الصحراء، بدأ البعض في الشعور بأنه لا مفر من القبول.

نظر (مراد) لأصحابه، هؤلاء من لا أهل لهم الذين حاولوا أن يكونوا عائلة لبعضهم البعض، ولم يكن هذا ليتحقق لولا الدكتور (سليم).

ما أن وصل (مراد) بأفكاره لهذه النقطة حتى دخل الدكتور (سليم) من الباب. كان دائما ما يتأخر عن ميعاده لأنه لا يمكن التنبوء بالإجراءات المشددة التي يتم تطبيقها في كل مرة عليه. فحص بالأشعة فوق البنفسجية، فحص قاع العين عن طريق الروبوت، أجهزة استشعار العدوى الفيروسية التي تشبه الذباب التي تحوم في كل مكان في (الخلية) وترصد أي تغير في الأولاد تتجمع كالإعصار حول كل زائر لتدور في دورات لا يمكن توقع عددها حتى تتحول أنوارها الصغيرة الحمراء التي ترسم دوائر منتظمة على حوائط غرفة العزل إلى اللون الأخضر، فيمكن وقتها للدكتور(سليم) - بعد أن تنفض عاصفة الذباب الإلكتروني - في الدخول إلى (الخلية).

لم يكن الدكتور (سليم) كالآخرين. كان كل من هو قائم على العمل في (الخلية) مقتنعا بأن إعطاء الحد الأدنى من اهتمامه لسكانها من الأطفال هو كل ما عليه فعله. أما هو فكان دائم تحدي لقدراتهم وشحذ لعقولهم ومطالبتهم بالتميز.

كان هناك الكثيرون مثله في أول الأمر، ممن تطوعوا في فورة الحماس الأولى للتدريس وتدريب أطفال (الخلية).

لكن الحماس فتر بعد قليل، وتوقف معظمهم عن المجيء. إلا هو. بدأ معهم بتدريس الحساب، ثم اللغة والتاريخ، وكان حين يدرس لهم في تخصصه : العلوم والطب، كان قادرا على جذب انتباههم وفتح أبواب عقولهم لاحتمالات لم يتخيلوها من قبل. كان دائما ما يعدهم أنه سيساعدهم ليجدوا مكانهم في الدنيا بعد الخروج من (الخلية). غير أن أحدا لم يعلم متى سيخرجون من (الخلية)، أو إن كانوا حقا سيخرجون. فبعد أن تم اتخاذ قرار إنشاءها في العام ألفان وثلاثين لم يمتلك أحد الشجاعة ليسأل عن ميعاد خروج نزلائها إلى الحياة من جديد، حتى بعد أن أصبح من المفهوم أنه لم يعد هناك خطر من اختلاط الأطفال بالكبار.

اليوم (مراد) وزملائه قد أمضوا أكثر من خمسة عشر عاما بين أسوار (الخلية)، لم يعودوا يتساءلون عن ميعاد الخروج. فقط حرصوا على أن يستمتعوا بما هو متاح من أوقات سعيدة في فصل الدكتور (سليم)، إلا أنهم لم يكونوا على علم بأن كل شيء سيتغير اليوم.

كان الدكتور (سليم) في منتصف الشرح حين انطلق صوت مكنسة عم (رضا) الكهربائية.

نظر (مراد) إليه في تعجب، فهو يعلم أهمية التزام الهدوء وقت الدرس، انتفض (شريف) قليلا إذ كان قد اقترب من حد النعاس فلم يكن التعليم أبدا أهم اهتماماته، أما (توني) و(تسنيم) و(عمر) و(ريموندا) و(آسر) و(جودي)، فقد تجاهلوا الأمر في أوله ثم حين استمر صوت المكنسة عاليا انتبهوا لقيام الدكتور (سليم) الذي اقترب من عم (رضا) في قلق.

وقف الدكتور (سليم) أمام الرجل الستيني يتأمله في صمت، مما دعا (مراد) لأن ينضم إليه.

رأى (مراد) عينا الدكتور (سليم) تتجول فوق وجه عم (رضا) الناظر أمامه في جمود، تابع عيناه ورأى ما رأى.

كان عيون عم (رضا) تميل إلى اللون الأحمر، ينسحب على شفتيه لون أزرق خفيف لكن لا تخطئه عين، فتحتا أنفه تتسعان وتضيقان في سرعة وكأنه في منتصف مسابقة للجري.

حرك الدكتور (سليم) يداه أمام وجه عم (رضا) فانتفض كأنه كان يغط في نوم عميق، واعتذر بارتباك مغلقا مكنسته ومنصرفا من المكان في سرعة.

عاد الكل إلى مكانه متخذين سن عم (رضا) كهدف للنكات، فيبدو أن الرجل قد بلغ من العمر ما يجعله يستغرق في النوم وهو واقف على قدميه.

إلا أن لمحة من القلق استقرت فوق وجه الدكتور (سليم)،و كان (مراد) من الذكاء بحيث أدرك ما أقلقه. فالآثار الطفيفة التي ظهرت على وجه عم (رضا) ترجح أنه قد تعرض لعدوى ما. فكيف حدث هذا مع كل الإجراءات المشددة التي تحيط بكل العاملين في (الخلية)؟

و كيف لم يكتشف الذباب الإلكتروني كونه مصابا بمرض ما، على الرغم من أن قاعدة بيانات تلك الروبوتات المتناهية الصغر تحمل بداخلها وسائل لكشف كل العدوى المعروفة للبشرية.

لم يستغرق الأمر كثيرا حتى انتشرت العدوى في كل مكان.

كانت مراحل المرض تحير الكثيرين، من تغير بسيط في المظهر، لشرود معظم الوقت، لتحول المصابين لما يشبه الدمى المصنوعة من القماش، لا يوجد أي ارتباط بين إشارات المخ وأعضاء الجسد.

حاول الأطباء كل ما في وسعهم لإعادة المرضى إلى عالم الوعي. وأخرج العلماء كل ما في خزانة الطب الحديث من أسلحة دون جدوى، وشاهد العالم تعداده من البشر الواعي في تناقص يوما بعد الآخر. لا دليل على كيفية انتقال العدوى ولا على الفئات الأكثر عرضه للمرض. لا يوجد ما يحد من أعراض المرض ولا يوقفها في مرحلة ما. لم يكن البعض متأكدا من مصدرها، طرق انتقالها، ولا مسبباتها.

في (الخلية) خيم الصمت على (مراد) وزملائه، حاول البعض في الخارج إلقاء اللوم عليهم، فهم أعداء الوطن رقم واحد عندما يتعلق الأمر بالعدوى، لكن الشيء الوحيد الذي حماهم من اتهام الآخرين بأنهم هم سبب العدوى كان أنهم معزولون هنا، وأن أبا منهم لم يصاب بالمرض. حتى أن عم (رضا)، المريض الأول والأخير داخل أسوار(الخلية)، ثبت بالدليل أنه أصيب بالعدوى من خارج الأسوار. ولأول مرة تصبح (الخلية) مصدر حماية لأبنائها، وهي التي كانوا يرونها دائما كمؤسسة من مؤسسات العقاب.

سيطر الذعر على البشر في كل مكان، لكن ما كان يسيطر على ذهن (مراد) هو اللغز، لغز المرض، ولغز العلاج.

كان الدكتور(سليم) قد أقام مع المجموعة معسكرا كمعسكر قيادة الحرب. كانت ثقته في المجموعة بلاحدود، فقد اطلعوا معه على مدار الخمسة عشر عاما الماضية على كل ما كان يؤهلهم لأن يعملوا في مراكز البحث العلمية المرموقة. واجتازوا كما من الاختبارات وقاموا بكم من التجارب ما أهلهم لأن يصفهم الدكتور (سليم) بأنهم مجموعة من أفضل العقول في البلد وإن لم يبلغ أحدهم بعد عمر العشرين.

كان الكل ينتظره وفي أياديهم أجهزة كمبيوتر تكاد أن تكون غير مرئية من فرط صغرها ودقة مكوناتها. كان كل منهم عنده اقتراحات للعلاج.

كانت كلها مجرد اقتراحات أولية ونظرية، إلا أن (مراد) كان قد أعد ملفا كاملا بعد بحث ودراسة واختبارات سمح له الدكتور (سليم) أن يشارك فيها وقت تشخيص ومحاولة علاج المرضى على مدار عام كامل، داخل وخارج (الخلية)، وكان ما توصل له (مراد) يكاد أن يكون لا يصدق من فرط بساطته ومنطقيته، كان فقط عليه أن يفكر داخل الصندوق بدلا من خارجه، لم يكن عليه سوى التأمل فيما كان عليه أن يسميه بيته في الخمسة عشر عاما السابقة، كان عليه أن يفكر في (الخلية) نفسها!

كان (مراد) يهتز في مكانه من الحماس، منتظرا رد فعل أستاذه على نظريته، لكن الأستاذ لم يأتي أبدا، بدلا منه أتى حارس من حراس (الخلية) ليخبرهم أن الدكتور (سليم) قد أصيب أيضا بالمرض.

لم يقبل أيا من المسؤولين في المستشفى أن يسمحوا لـ(مراد) وزملائه بزيارة الدكتور (سليم)، ولم يرغبوا في سماع حديث مراد (مراد) عما كان متأكدا أنه طريقة فعالة للعلاج.

كان صغر سنهم، وعدم حملهم لدرجة علمية طبية، وكونهم من سكان (خلية)، كلها أسباب كافية في نظر الجميع حتى يتجاهلوا كل ما تقوله المجموعة.

لكن الدكتور (سليم) طلب لقائهم حتى قبل أن يعرف أنهم يلحون لطلب لقائه، ولم يكن لأطباء الدكتور (سليم) أن يرفضوا طلب أستاذهم خاصة في ظرف كهذا.

حرك الدكتور (سليم) رأسه مفكرا في نظرية (مراد) التي وقف ليلقيها عليه مقدما كل الأدلة التي تدعمها. لم يكن المرض لينتشر إلا بسبب ضعف المناعة. كل تلك الأمراض التي مسحتها البشرية من حاضرها، كل تلك الفيروسات التي لم يقابلونها وبالتالي لم يكونوا ضدها أجساما مضادة.كل شيء أصبح معقما، كل اتصال بين البشر والميكروبات والبكتيريا والفيروسات صار نادرا، ولهذا فقد خلدت أجهزتهم المناعية للكسل. فجاء فيروس تافه ليصيبها إصابة قاتلة دون مقاومة تذكر.

و كان الحل الذي فكر فيه (مراد) هو ببساطة: سم النحل.

منشط مفاجيء للأجهزة المناعية ولكرات الدم البيضاء ومنشط للخلايا العصبية عن طريق نقل الإشارات الحسية من مكان لدغات النحل إلى الخلايا الحسية الموجودة أسفل الدماغ.

نظر الدكتور (سليم) إلى (مراد) متفاجئا وسعيدا، فقد قام بتطبيق كل ما علمه له على أرض الواقع، التاريخ، الأحياء، الطب.

النظرية تبدو قابلة للتطبيق بالفعل، لكن هناك مشكلة واحدة قد تنسفها من الأساس.

من أين يمكنهم أن يأتوا بالنحل؟ فآخر سرب نحل كان قد انقرض من فوق سطح الكرة الأرضية منذ عشرة سنوات.

لم يكن الطريق للجبال سهلا.

فهي أرض المنبوذين، الذين لم يطيعوا القواعد وفضلوا أن يعيشوا على هامش المدنية.

و بعد عدة مواجهات بينهم وبين السلطات أصبح من المفهوم أن الطريقة المثلى لحل مشكلة تواجدهم هي أن تتجاهلها السلطات كأنها لم تكن.

لا أحد هنا يحمل شريحة تمكن السلطات من تتبع حركته لمنعه من تجاوز المناطق المسموح بتواجده فيها. لا أحد يستطيع أن ينزع طفلا من عائلته بحجة أنه مؤهل جينيا لأن يكن ناقلا للعدوى في يوم ما. ولا يتعرض أحد هنا إلى العقاب لتجاوزه كمية الطعام المحددة له حسب نظام الوجبات الغذائية الذي تحدده السلطات بناءا على عوامل لا يقبلها سكان الجبال.

هنا يزرعون ما يأكلون، ويأكلون ما يرغبون، يعلمون أولادهم ما يشاءون، لا يلتزموا بمناهج السلطات ولا بروايتهم للتاريخ، ويمرضون ويعالجون بالطرق التقليدية القديمة التي منعتها السلطات منذ أعوام طويلة.

هنا تعيش الحاجة (مرزوقة)، التي تصر على الاحتفاظ بلقب (حاجة) على الرغم من أنه أصبح لقبا غريبا على آذان الجميع بعد منع الحج منذ سنوات طويلة، بعد أن أغلقت كل دولة في العالم حدودها على نفسها ورفضت استقبال أي أفراد من خارج حدودها اتقاءا لخطر الأوبئة، لكن الحاجة (مرزوقة) بسنواتها السبعين كانت من أواخر المحظوظين بالسفر خارج البلاد قبل قرار الإغلاق الكامل لكل حدود العالم.

كانت هناك صداقة عميقة تربط بين الدكتور (سليم) والحاجة (مرزوقة)، أساسها أن كل منهم له رأي يخالف القواعد التي تفرضها السلطات، وإن كان الدكتور (سليم) يؤمن بأن التكنولوجيا هي الحل، بينما تراها الحاجة (مرزوقة) وبالا على حياة البشر وأحد العوامل التي ستعمل على إفناء البشرية كلها يوما ما.

كانت رحلة (مراد) وزملائه إلى الجبال قاسية، بدءا من محاولات الفرار من (الخلية)، وحتى التعامل مع العالم الخارجي الذي لم يره أحد منهم منذ كان في الخامسة من عمره.

إلا أن مهمتهم الأصعب من كل هذا كانت في إقناع الحاجة (مرزوقة) بأن تعيرهم بعضا من نحلاتها.

فكما أن الحاجة (مرزوقة) زعيمة تلك القرية الجبلية المارقة تقاوم في كل يوم لتحافظ على نمط حياة قررت السلطات أنه عفا عليه الزمن، كانت تحاول أيضا أن تحافظ على الطبيعة.

فهنا، في قريتها الصغيرة ستجد أراضي مزروعة بمحاصيل انقرضت من بقية أنحاء العالم، حين قرر الجميع أن الأسلم هو تناول الطعام في صورة كبسولات.

و كان انخفاض الرقعة الزراعية في العالم قد ساهم في اختفاء النحل، وساهم اختفاء النحل في اختفاء الرقعة الزراعية، وتحول سكان العالم من استهلاك مصادر غذاء طبيعية متنوعة إلى كونهم متلقين للفيتامينات المعباة في كبسولات.

لهذا فالحاجة (مرزوقة) في حرب دائمة مع كل شيء للمحافظة على محاصيلها ونحلها، فكيف لها أن توافق

اليوم على أن يأخذ أحدهم نحلاتها العزيزات ليعالج نفس البشر الذين قاموا بالقضاء على جداتهن؟

ثم ألا يعلم (مراد) أن لدغة النحلة تتسبب في قتلها؟

إذا كان البشر في حاجة لموت نحلة واحدة في سبيل علاج كل مصاب، ألا يعني هذا فناء كل خلايا النحل في الجبال، وفي النهاية لن يشفى كل البشر؟.

كانت تلك الحقيقة قد ألجمت (مراد)، الذي رأى نظريته كاملة تنهار بسبب مغالطة منطقية لم تنتبه لها إلا زعيمة الجبل.

خلف الحاجز الزجاجي وقف (مراد) ليشاهد الدكتور (سليم) المغطى بالنحل الإلكتروني، بعد أن تمكن هو وزملائه بدمج خبراتهم التصميمية والطبية والتكنولوجية بمساعدة الحاجة (مرزوقة) التي أقرضتهم بعضا من نحلها لدراسته، ومساعدة فريق مطوري الذباب الإلكتروني العامل في (الخلية)، ليتمكنوا جميعا من ابتكار: " النحل الإلكتروني»، الذي يتجمع كغطاء فوق المصاب يلدغه لدغات غير محسوسة إلا أنها تستفز جهازه المناعي ليستعيد يقظته، أو أن هذه هي النظرية، يتبقى الآن اختبارها عبر التطبيق العملي الذي تطوع لتجربته الدكتور (سليم).

خلف (مراد) ظهر زملائه وفريقه العلمي يتابعون معه النحل الإلكتروني من وراء الزجاج ويراقبون الأجهزة التي ترصد المؤشرات الحيوية للدكتور (سليم).

على الناحية الأخرى من الزجاج وتحت غطاء النحل الذي ملأ أزيزه المكان، التفت الدكتور (سليم) لينظر إلى (مراد) ويبتسم ابتسامة مرهقة لكنها مشجعة، وتبادل الاثنان نظرة كانت ترجمتها :

(فلنأمل أن يكون هذا هو الحل).

تمت